أبعاد الشخصية الشعرية الأردية لميرزا غالب – مقدمة نقدية نفسية

The Dimensions of Mirza Ghalib's Urdu Poetic Persona A Psycho-Critical Introduction

عبدالمجيب بسام

رئيس قسم الأدب بكلية اللغة العربية في إسلام آباد

Email: abdul.mujeeb@iiu.edu.pk

براء خالد هلال

طالب دكتوراه، بكلية اللغة العربية

الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد

Email: baraa.phd248@iiu.edu.pk

Abstract

This research explores the psychological dimensions of the personality of the Indian poet Mirza Ghalib as reflected in his Urdu poetry, focusing on his inner contradictions, existential struggles, and the emotional and philosophical depth that characterizes his work. Ghalib emerges as a multi-layered poetic persona, intertwining self-reflection with profound existential questions about life and death, love and suffering, faith and doubt. He is not merely a poet who expresses his personal experiences; rather, he transforms his individual suffering into a universal human experience that resonates deeply with readers.

The study also delves into the psychological aspect of Ghalib's poetry through the lens of love, which he perceives as a supreme spiritual force, yet one perpetually laden with suffering, longing, and loss. This love manifests as a state of continuous burning. Furthermore, the research examines the philosophical dimension of Ghalib's personality, where he articulates existential and mystical visions related to the relationship between man and God, and between the soul and matter.

Keywords: Mirza Ghalib, Urdu poetry, psychological dimensions, love and suffering, existential struggles

مقدمة

يستشكف هذا البحث الأبعاد النفسية لشخصية الشاعر الهندي ميرزا غالب كما تتجلى في شعره الأردي، مع التركيز على التناقضات الداخلية، والصراعات الوجودية، والعمق العاطفي

والفلسفي الذي ميّز إنتاجه، كشخصية شعرية متعددة الطبقات، تتداخل فيها التأملات الذاتية مع تساؤلات وجودية كبرى حول الحياة والموت، والحب والمعاناة، والإيمان والشك. ومن حيث كونه شاعراً لا يعبر تجاربه الشخصية، بل يجعل من معاناته الفردية نموذجًا إنسانيًا شاملًا يتردد صداه لدى القارئ. يتناول البحث أيضًا الجانب النفسي لشعر غالب من خلال عدسة الحب، الذي يراه الشاعر كقوة روحية عظمى، لكنها دائمًا ما تكون مليئة بالمعاناة والحنين والخسارة. وتتثمل في حالة من الاحتراق المستمر. كما يناقش البحث البعد الفلسفي في شخصية غالب، حيث يعبّر عن رؤى وجودية وصوفية تتعلق بالعلاقة بين الإنسان وربه، وبين الروح والمادة.

أولاً : غالب .. الشخص

ميرزا غالب (1797- 1869م)[1] شاعر الهند العظيم الذي كتب شعره باللغتين الأردية والفارسية. يتميز أسلوبه الشعري بفرادة تجمع بين العمق الفلسفي، والغنائية العاطفية، والخيال المبدع، مما يجعله أحد أعمدة الشعر الكلاسيكي في الهند، طبع شعره في ثلاثة أجزاء، وحظي بعشرات الشروح[2].

اسمه ميرزا أسد الله خان بيگ، الملقب "بميرزا غالب"، عاش في القرن التاسع عشر إبّان حكم إمبراطورية المغول وعاصر الاحتلال البريطاني. كان غالب أبرز شعراء الدولة المغولية في آخر عهدها وشهد صراعاتها ضد الاستعمار البريطاني، وكان آخرها ثورة السيبوي عام 1857م، والتي انتهت بسقوط تلك الإمبراطورية، حيث كتب أشعاراً عديدة حول تلك الأحداث إضافة إلى قصائد الغزل المشرقي التي لا تزال شائعة في التراثين الهندي والباكستاني[3].. والغزل المشرقي نوع من الشعر يجمع إلى جوار الحب والعشق أغراضاً أخرى في الفلسفة والحكمة والتصوّف.

ولد ميرزا أسد الله خان غالب في مدينة أكَرا التي تضم ضريح تاج محل، من أصول تركية سلجوقية أرستقراطية، وقد توفي والده وعمه وهو في عمر الصبا، فتبناه أخواله، وزوجوه في الثالثة عشر من عمره بابنة أحد أعيان المدينة، وبدأ يكتب الشعر في الحادية عشرة من عمره بالتركية كما كتب بالفارسية، لغة البلاط المغولي آنذاك، وكتب قليلاً من شعره بالأردية، وهي اللغة المنطوقة في بلاده. شغل غالب منصب شاعر البلاط خلال فترة حكم الإمبراطور المغولي بهادر شاه ظفر، والذي كان هو الآخر شاعراً معروفاً. وخلال السنوات الأخيرة من حكم المغول، كان صاحب "كليات غالب" معلم الشعر للأمير فخر الدين ميرزا، الابن الأكبر للإمبراطور الذي قام بتعيينه مؤرخاً ملكياً في بلاطه[4]. وبعد سقوط الإمبراطورية المغولية عاش غالب عيشة شظف وصعوبة وعاني في كسب قوت يومه مع المهمشين في ميدان الفضة (تشاندي تشوك)، وكان من نصيبه أن يعاين ما حل في بلاده من الحصار والتخريب على يد الجيش البريطاني.

ورغم قلة ما كتبه إلا أنه هوالأشهر في الشعر الأردي لما فيه من ملامسة للطبقة العادية من الشعب. وضمّن شعره هذا في ديوانه (الوردة الجميلة) (1826م)،حيث تم ترجمة أعماله إلى الكثير من اللغات الهندية والأجنبية.

استلهم غالب في شعره تجاربه الشخصية ومعاناته، مما أضفى على قصائده طابعاً ذاتياً وإنسانياً يتجاوز حدود الزمان والمكان. حيث توفي في ظل الاحتلال عن واحد وسبعين عاماً، في حقبة كان لها النصيب الأكبر من الاضطرابات طوال التاريخ السياسي والاجتماعي لبلاده.

ثانياً : غالب.. الشخصية

لا يمكننا في هذا البحث القصير الوقوف على كامل تجربة غالب الشعرية، لكننا نحاول تقصي أبعاد شخصيته وتحولاتها بين العصرين الكبيرين الذين يمثلان عنوانين رئيسيين في مسيرة حياته، وإن كان المشهور أن ميرزا غالب كتب جل شعره في بلاط السلطان بهادر شاه، وخفت أدبه بعد الاحتلال البريطاني، لكن شعره الأردي هو من آخر ما كتب، لذا يمكننا أن نعتبر أننا بدارسة شعره الأردي ندرس الشخصية الشعرية الناضجة لغالب، ونستطيع الوقوف عليها من خلال الأبعاد التالية:

1. العمق الفلسفي

الشعر في الهند يمثل روح الشعر المشرقي الذي لا يقتصر على التعبير عن المشاعر أو وصف الظواهر، بل هو نافذة مفتوحة على أعماق النفس والتأمل الإنساني. وكان الشعراء الهنود على مرّ العصور مزيجاً مدهشاً من المفكرين والفلاسفة الذين جسدوا في أبياتهم تساؤلات الكون الكبرى وأسرار الحياة والموت. انعكست في شعرهم الروحانية التي تشكل جزءاً أساسياً من الثقافة الهندية، حيث تسرّب خليط من الأفكار الصوفية والهندوسية والإسلامية إلى بنية القصيدة، مما جعلها تتجاوز حدود اللغة إلى جوهر الوجود ذاته.. سواء من خلال التأمل في العلاقة بين الإنسان والإله، أو البحث عن الحقيقة المطلقة، أو بتعبيرها عن الحزن الوجودي، حيث أبدع الشعراء الهنود في نقل تجارب إنسانية ذاتية بأسلوب فلسفي تجريدي عميقة يندر وجوده في ثقافات أخرى، ولعل غالب كان أحد أبرز قادة هذا التيار الشعري. كان شعره تجسيداً للتوازن بين المادة والروح، وبين الفناء والبقاء، مما جعل أعماله تتحدث إلى القارئ المعاصر بذات العمق الذي خاطبت به جمهوره في الماضي. يُعالج غالب قضايا فلسفية معقدة، كالحياة والموت والقدر والإرادة، والحب والفقد، بأسلوبه الشعري الخاص الذي يمزج بين البساطة والتجريد، فعلى الرغم من عمق هذه الموضوعات، لكن ميرزا غالب استطاع أن يصل بها إلى أدنى الطبقات في المجتمع الهندي، يقول غالب[5]:

ہزاروں خواہشیں ایسی کہ ہر خواہش پہ دم نکلے

بہت نکلے مرے ارمان لیکن پھر بھی کم نکلے

في هذه الأبيات يشير ميرزا غالب إلى أن هناك آلاف الرغبات التي تزهق الروح دون تحقيق كل منها.. ورغم ذلك تتحقق العديد من أمنياته، لكنها تظلّ أدنى من أن تشبع رغائبه. تعكس هذه الأبيات فكرة الطمع الإنساني وعدم الرضا، حتى عند تحقيق بعض الطموحات، لأن الطموح الإنساني لا حدود له. يعبر غالب هاهنا عن التناقض بين شدة رغبات الإنسان وقدرته المحدودة على تحقيقها، والصراع بين الطموح البشري والقيود المفروضة على قدرات البشر.

يمتد انعدام القناعة البشرية هذا إلى الوجدان والمشاعر أيضاً فلا يرى غالب الحب مجرد تجربة رومانسية، بل هو حالة وجودية تعكس هشاشة الإنسان واحتياجه إلى الآخر. فلا يجب أن يختصر الفقدان في الألم الذاتي الذي يشعر به الفاقد لأن الفقد تعبيرعن الطبيعة الفانية لكل من عليها- يقول غالب[6]:

یہ نہ تھی ہماری قسمت کہ وصالِ یار ہوتا

اور اگر جیتے رہتے یہی انتظار ہوتا

ويمكننا تفسير هذه الأبيات بأنه "لم يكن من نصيبنا أن نلتقي بالحبيب ولو حيينا لما انتظرنا سواه" ويجعل ذلك هو الأصل في العلاقات الوجدانية التي لا تقتصر على المشاعر المجردة إذ أنها تحمل في طياتها مزيجاً من السعادة المأمولة والفقدان الذي يعكس قسوة القدر. ويستطيع غالب التعبير عن هذه القضايا العميقة بلغة تجمع بين الوضوح الذي يسهل فهمه، وبين التجريد الذي يترك مساحة للتأمل الشخصي، أي أن كل قارئ لهذا الشعر يشعر أنه يمثله، حيث يتجنب الإجابات المباشرة، ويترك تساؤلاته مفتوحة يمكن لكل قارئ أن يجد فيها معناه الخاص.. كقوله أيضاً[7]:

عشق تاثیر سے نومید نہیں جاں سپاری شجرِ بید نہیں

سلطنت دست بدست آئی ہے جامِ مے خاتمِ جمشید نہیں

رازِ معشوق نہ رسوا ہو جائے ورنہ مر جانے میں کچھ بید نہیں

يقول المعنى المباشر للأبيات أن "العشق لا ييأس من إحداث أثر، والتضحية بالنفس ليست شجرة صفصاف هزيلة، أي أنها ليست ضعفاً من العاشق، فالأيام دول والسلطان دائل عليها. وكأس الخمر ليس خاتم جمشيد[8] الذي يمنح القوة والسيطرة أي أن السلطان لا يناله المرء بأشياء سحرية.. لا ينبغي أن يُفضَح سرّ المحبوب وإلا فإن موت المضحي لن ينطوي على سر أو معنى". في هذه الأبيات، يرسم غالب صورة فلسفية صوفية للحب والحياة، محاولًا فهم أبعاد العشق كقوة روحانية

تتجاوز كل الحدود البشرية والمادية. فالحب عنده يتجاوز الشعور الذاتي أو التجربة الخاصة ليتحول إلى طاقة قادرة على إحداث انقلاب جذري لا يمكن لليأس أن يهزمه. التضحية التي تأتي مع العشق ليست ضعفًا، بل قوة ترفع الإنسان إلى مستويات عليا من السمو الروحي، والصمود والمقاومة. كما يعبر غالب عن فكرة زوال العالم المادي، حيث يشير إلى أن الممالك والكؤوس والرموز الأرضية، مثل خاتم جمشيد الأسطوري، ليست سوى أشياء عابرة لا تملك تلك الطاقة السحرية لإحلال السعادة كما تدعي الأساطير، بينما تكمن الحقيقة في النور الإلهي الذي يمنح الحياة والوجود قيمتهما. ولكن تلك الأسرار يجب أن تظل أسرار حب مقدسة لا تُكشَف، لأن هذه الأسرار هي جوهر التجربة الروحية والوجودية. فالموت ليس بالأمر الجلل ولا يعدو أن يكون انتقالاً لمرحلة أخرى، لكن كشف سرّ المحبوب هو الكنز الجليل الذي لا بد من حمايته بأي ثمن، لأنه يمثل قدسية العلاقة بين العاشق والمعشوق.

يحرص غالب من خلال تناول هذه الموضوعات أن لا يهمل الجانب العاطفي الذي يلامس روح المتلقي. فلم يتناول غالب الحياة والموت كظواهر طبيعية تسري على كل الناس بل جعلهما قضيتين فلسفيتين للمتأمّل، حيث لا يقتصر غالب الحياة على الوجود الفيزيائي، بل يجعلها سفينة مبحرة مشحونة بالمعاناة والأسئلة الوجودية.

يتناول غالب الصراع بين الإرادة الحرة والقدر المحتوم تناولاً فلسفياً يعكس تساؤلاته الذاتية وما ينتابها من شعور بالاضطراب الناتج عن محاولة الإنسان فهم دوره في الكون: هل نحن أحرار في اختياراتنا، أم أننا مقيدون بقوانين القدر؟ حيث يصف مثلاً حالة من الإحباط بلغة واضحة وبسيطة، لكنها في الوقت نفسه تعكس معنى فلسفياً عميقاً عن عدمية الحياة[9]:

کوئی امید بر نہیں آتی، کوئی صورت نظر نہیں آتی

موت کا ایک دن معین ہے نیند کیوں رات بھر نہیں آتی

أي لا أمل يتحقق، ولا حل يبدو في الأفق، للموت يوم واحد لاسواه، فلم لا يأتيني النوم في الليل؟! عبارات بسيطة تصلح أن تكون عبارات من اللغة اليومية للتعبير عن الإحباط. حيث يجذب هذا الأسلوب المميزالقارئ إلى التفكير العميق دون أن يثقل عليه بالتجريد المفرط. يضع غالب القارئ في مواجهة أسئلة كبرى عن الحياة والوجود، لكنه يترك له الحرية في استكشاف إجاباته بنفسه دون تقريرية جازمة.

2. الحبُّ الملحميّ التراجيدي

ليس الحب في شعر غالب رحلة سعيدة ناعمة، بل تجربة مأساوية مفعمة بالآلام والخسائر. ينبع تصويره للحب من رؤية فلسفية خاصة، يتجاوز فيها المشاعر المتلهبة بين اثنين إلى حالة وجودية روحية تسمو على القيود الاجتماعية والإنسانية، يختبر فيها العاشق حدود صبره وشغفه، ويستلذ فيها العذاب بكل أشكاله، ما يجعل قصائده الغزلية مفعمة بالشجن والتأمل. مثل قوله[10].

دل ہی تو ہے نہ سنگ وخشت، درد سے بھر نہ آئے کیوں

روئیں گے ہم ہزار بار کوئی ہمیں ستائے کیوں

يتشكى غالب هنا قائلا: هذا قلب فحسب، وليس حجراً أو طوباً، لماذا لا يمتلئ بالألم؟ إنني مستعد أن أبكي ألف مرة ولكن لم علي أن أتحمل كل هذا العذاب؟

هنا يتماهي غالب مع جلال الدين الرومي الذي رأى الحب حالة روحية سامية تفوق التجارب الإنسانية العادية، بل هو ألمٌ ضروري للوصول إلى الكمال الروحي والاتحاد مع المطلق.حيث يقول مولانا[11]:

" لا تجزع من جرحك، وإلا فكيف للنور أن يتسلل إلى باطنك"

وكذلك فالحبيب في فلسفة غالب ليس إنساناً من لحم ودم بل رمز لفكرة السعادة المطلقة التي تظل حلماً مستحيلاً، لا تنفصل السعادة فيها عن الألم، فيجد العاشق نفسه محاطاً بالعذاب، ويجعل القلب رمزاً للإنسانية والرقة، وهذا الشوق لا ينتهي بتحقق الحب، بل يتجدد باستمرار، مما يجعل الحنين حالة دائمة للعاشق. لعل غالب استفاد هذا الهاجس من دانتي[12] صاحب الكوميديا الإلهية، الذي جعل تجربة الحب مع (بياتريس) تجربة وجودية، يمثل الحب فيها ألمًا مقدسًا يرتقي بالإنسان نحو الإلهي.الحب عند غالب أكبر من القيود الاجتماعية الإنسانية، بل هو حالة من التحرر الروحي، الذي لا يصل إليه المرء إلا بثمن باهظ، وهو معاناة العاشق الذي يجد نفسه في صراع دائم مع الواقع. يقول غالب[13]:

عشق سے طبیعت نے زیست کا مزا پایا

درد کی دوا پائی درد بے دوا پایا

أي بفضل الحب، تجد الطبيعة لذة الحياة، وتجد دواء للألم، وتجد ألمًا بلا دواء.. تقول هذه التجربة أن الألم جزء لا يتجزأ من الحياة، وما الحياة إلا صراع بين السعادة والشقاء حتى لا يكادان يفترقان، فعندما يجد الإنسان علاجًا لأحد أوجاعه، فإنه قد يكتشف ألماً آخر أكثر تعقيداً ولا علاج له إلا بالموت، يقول غالب[14]:

غم ہستی کا اسد کس سے ہو جز مرگ علاج؟

شمع ہر رنگ میں جلتی ہے سحر ہونے تک

يخاطب غالب نفسه في هذه الأبيات على عادة الشعراء الهنود باسمه الحقيقي (يا أسد) بخلاف عادته في نداء نفسه (يا غالب) ويتساءل: ما علاج ألم الوجود سوى الموت؟ فالشمعة تحترق بكل ألوانها حتى طلوع الصباح!!

في هذين البيتين، يؤكد ميرزا غالب حتمية ألم الوجود (غم ہستی) مستعينًا باستعارات تتسم بالشمولية والرمزية. فألم الحياة وهو الإحساس الجوهري الذي يلازم الإنسان بمجرد وعيه بذاته وبالعالم من حوله منذ أن يستهل باكياً، ولا علاج لهذا الألم الذي بدأ من صرخة الولادة سوى الموت، وعبر عن هذه المعاناة بفكرة الاحتراق في "كل الألوان" مشيراً إلى تنوع التجارب والمشاعر التي يمر بها الإنسان خلال حياته، من فرح وحزن، ومن أمل ويأس، وكلها في النهاية تؤدي إلى النهاية الحتمية لكل معاناة. السؤال الذي يطرحه على نفسه يعكس تساؤلًا فلسفيًا قديمًا حول جدوى الحياة ومعناها في ظل هذه المعاناة المستمرة. فلا يعود الموت يحمل معنى الفناء المطلق بل الراحة المطلقة من صراعات النفس وألم الحياة.

الرؤية الفلسفية في هذين البيتين تمزج بين نظرة وجودية تتعامل مع الحياة كرحلة مليئة بالألم والصراع، لا مهرب منها إلا بالموت.. ونظرة صوفية تفسر الاحتراق بأنه حالة تطهير روحي، حيث أن الألم والمعاناة هما الوسيلتان للوصول إلى حقيقة أسمى أو نهاية مقدسة، تمامًا كما تُضيء الشمعة الظلام قبل أن تذوب. وهكذا يضيف غالب إلى هذه الفكرة الشائعة في الأدب العالمي التي تصور الحب رحلة مأساوية ممتلئة بالآلام لكنها مفعمة بالتأمل والشجن تتكرر عبر الثقافات بدءاً من مجنون ليلى وابن الفارض مروراً بالرومي وحافظ الشيرازي ودانتي وليس انتهاء بإقبال، وغيره من الشعراء الذين رأوا الحب وسيلة للتحرر من المحدود والوصول إلى المطلق.

3. تأثير التصوف

عاش الشاعر الفيلسوف، الذي طرح أسئلة عن الحياة، والدين، والمجتمع، الحياة بشروطه وطريقته وكتب كثيراً عن فلسفة الحياة والتصوف. وعلى الرغم من أن غالب كان رجلا مؤمناً، إلا أنه لم يكن متديّناً أبداً، مثل الكثير من المتصوفة الذين أتوا قبله وبعده.. كان هندياً تشكلت شخصيته من مكونات الهند بشتى مشاربها، فلم يكن يعترف بالتمييز بين طبقة وأخرى أو بين دين وآخر، وكان شعره صدى لهذه الفكرة. أما جاذبية شعر غالب والتي هي اليوم أكثر قوّة ممّا كانت عليه أثناء حياته

فلأن شعره انعكاس للطبيعة المتأصّلة فيه كإنسان. وهو في شعره يتناول شتّى المشاعر الإنسانية كالحبّ والبؤس والوجود والعدم، وهو بنفسه يستغرب من هذا التناقض الذي يعيشه، حيث يقول مثلاً[15]:

یہ مسائل تصوف یہ ترا بیان غالب
تجھے ہم ولی سمجھتے جو نہ بادہ خوار ہوتا

هذه قفلة قصيدة ترجمها الشاعر والكاتب السوري نوزاد جعدان بعنوان "لم يكتب لي وصال حبيبي" يقول في ختامها: "هذا التصوف يا غالب وهذا بيانكَ .. كنتَ قديساً لو لم تكن نديمَ الكأسِ!" يظهر الشاعر شخصية تجمع بين الجوانب الروحانية والجوانب المادية المرتبطة باللذة الحسية، مما يعكس طبيعته المركبة و الغنية بالمتناقضات، وأسلوبه المليء بالتأملات العميقة والأسئلة الكبرى يعزز هذه الصورة، حيث يظهر كما لو أنه في حالة دائمة من السعي نحو المطلق. يحطم غالب هذه الثنائية التقليدية فهو يُظهر أن الجمع بين هذين الجانبين لا يعني تناقضًا بالضرورة، فالخمر الصوفية ليست مجرد لذة عابرة بل وسيلة روحية للوصول إلى حالات من السمو الذهني. ولا يقدم غالب نفسه وليّاً منزّهاً عن الأخطاء، متحرراً من الضعف الإنساني؛ بل يعبر عن صراعاته الداخلية ببساطة، والتي يتنازعها حبّه للمعرفة والروحانية وضعفه أمام شهوات الدنيا. كما أن رغبته في فهم أسرار الوجود تُقابلها حاجته للهروب من قسوة الواقع. لكن هذا التناقض لا يقوده إلى الإلحاد المباشر فهو مقرّ بوجود الله منذ الأزل إلى الأبد، يقول غالب[16]:

نہ تھا کچھ تو خدا تھا، کچھ نہ ہوتا تو خدا ہوتا
ڈبایا مجھ کو ہونے نے، نہ ہوتا میں تو کیا ہوتا

يقول غالب: عندما لم يكن هناك شيء، كان الله موجوداً، ولو لم يكن هناك شيء، لظل الله موجوداً. إن وجودي هو ما أغرقني، ولو لم أكن موجوداً، فما الذي كان سيحصل؟ في هذه القصيدة يحاول غالب فهم العلاقة بين الإنسان وربه، وبين الروح والمادة. لم يكن غالب صوفياً بالمعنى التقليدي، لكنه استلهم الفكر الصوفي ليعبر عن رحلته الروحية، لاسيما فكرة وحدة الوجود المحورية في الفكر الشعري الصوفي، حيث يُنظر إلى الله على أنه موجود في كل شيء. تأملاته في الوحدة الإلهية، والعلاقة بين الإنسان وربه، وبين الروح والمادة، تعكس استلهامه لجوهر الفكر الصوفي الذي يرتكز على السعي لفهم الحقيقة المطلقة والاقتراب من الإله. يعبر غالب عن هذه الأفكار بأسلوب فريد يمزج بين الفلسفة والشعر، متجاوزاً القوالب التقليدية للصوفية.

كما يخصّص غالب جانباً كبيراً من أشعاره في مديح النبي محمد صلى الله عليه وسلم والثناء عليه، تمجيداً وتكريماً وهو ما يوضح أن غالب كان مسكوناً بالعاطفة الإسلامية مثل قوله في قصيدة الفارسية، مطلعها[17]:

حق جلوه گر ز طرزِ بیانِ محمد است

آری کلامِ حق به زبانِ محمد است

يسلك غالب في هذه القصائد سلوك شعراء المديح النبوي بعد القرن السادس الهجري، حيث يقدم نفسه امرءاً عاصياً يخجل من الوقوف بين يديه صلى الله عليه وسلم، لذا يؤثر أن يبقى صامتًا في حضرة هيبته، على غرار أشعار ابن نباتة المصري، أو بردة البوصيري، التي يقول فيها {من البسيط}[18]:

فإنّ أمّارَتي بالســـــــوءِ ما اتعظــتْ من جهلها بنذيرِ الشيبِ والهرمِ

ولا أَعَدّتْ منَ الفِعْلِ الجَميلِ قِرَى ضيفٍ ألمّ برأسي غير محتشمِ

فكرة الفناء عند ميرزا غالب تعكس تأثره العميق بالرؤية الصوفية للحياة والوجود، كوسيلة للتحرر من قيود الذات والوصول إلى الحقيقة المطلقة. الفناء في الذات المطلقة هو ذوبان الإنسان في الكون وفي الذات الإلهية. يظهر ذلك من خلال شعره الذي يمزج بين الألم واللذة في تجربة وجودية تتسم بالتأمل والاحتراق الداخلي؛ يقول غالب[19]:

قیدِ حیات وبندِ غم، اصل میں دونوں ایک ہیں

موت سے پہلے آدمی غم سے نجات پائے کیوں

في هذا البيت يقول غالب "قيود الحياة وسلاسل الحزن في جوهرهما شيء واحد، فلماذا يتوقع الإنسان الخلاص من الحزن قبل الموت؟". الفناء هو المرحلة التي يفقد فيها الإنسان وعيه بذاته الفردية ويتصل بالحقيقة الإلهية، وهو ما يتجلى في نظرة غالب إلى الحب والمعاناة كوسيلة للتخلص من الأنانية والغوص في بحر المطلق. من هنا، فإن الفناء عند غالب ليس نقيضًا للحياة، بل هو استكمال لها في أفق روحي أوسع، حيث يصبح الألم والمعاناة جزءًا ضروريًا من الرحلة إلى الحق. يقول غالب[20]:

ہوئی مدّت کہ غالب مر گیا، پر یاد آتا ہے

وہ ہر اک بات پر کہنا کہ یوں ہوتا تو کیا ہوتا

يقول في هذا المعنى أنه "مرّ وقت طويل على وفاة غالب، لكنه ما زال يُذكر، وخصوصًا ذلك التساؤل الدائم: ماذا لو كان الأمر قد حدث بطريقة مختلفة؟" هذا البيت يُبرز التناقض بين رغبات

الجسد ونقاء الروح، ليؤكد أن الفناء هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق الاتحاد مع المطلق، وهو تعبير عن طبيعة إنسانية تتوق إلى التلاشي في الكمال الإلهي.

يسلك غالب سبيل أبي العلاء المعري كثيراً في الاعتراض على فكرة الحساب والجزاء، وعلى بعض الغيبيات التي تقدح في إيمان المرء وتخرج به إلى ما أُخِذ على الخيام وابن سينا والمعري من أسئلة وجودية أقرب للإلحاد، كما يقول غالب[21]:

پکڑے جاتے ہیں فرشتوں کے لکھے پر ناحق
آدمی کوئی ہمارا دمِ تحریر بھی تھا؟

ويعني بذلك أننا نُحاسَب ظلماً على ما كُتِبَته الملائكة عنا، فهل شهد امرؤ منا ما كانوا يكتبون آنذاك؟! ، وهذه النبرة شبيهة بقول المعري {من الطويل}[22]:

ما باختياريَ ميلادي ولا هرمي ولا حياتي فهلْ لي بعدُ تخييرُ
ولا إقامـــــةُ إلّا عن يَدي قـــــــدرٍ ولا مسيرَ إذا لم يُقضَ تسييرُ

4. الهروب من المأزق النفسي

الهروب من المأزق النفسي ثيمةً بارزة في شعر ميرزا غالب، حيث يتجلّى الصراع الداخلي في محاولاته الدائمة للبحث عن ملاذ يخفف وطأة الألم الوجودي والغربة العاطفية، إذ يواجه غالب معاناة مركبة تتمثّل في اغترابه عن الذات، وقسوة الزمن، وخيبات الحب، وتساؤلاته الوجودية العميقة حول العدل الإلهي والحياة والموت. يظهر هذا الهروب في قصائده بأشكال مختلفة، كالتوق إلى العزلة المطلقة، أو الغوص في التأملات الفلسفية، أو الانغماس في الرمزيات، فالهروب عنده انعكاس لرغبة عميقة في تجاوز ثقل الحياة اليومية والتصالح مع الأسئلة الكبرى التي تعذّب روحه. ونجد ميرزا غالب متأثراً في ذلك بشعراء المشرق الذي اقتدى بهم كجلال الدين الرومي الذي كان كثيراً ما يعبر عن هروب مماثل، لكن باتجاه الفناء في المطلق الإلهي كما أسلفنا في العنوان السابق، حيث تكون المعاناة وسيلة للارتقاء الروحي لا نوءاً بالأعباء النفسية. هذا هو الهروب نفسه الذي حاول محمد إقبال أن يعالجه بعد غالب بأن يجعله حركة واعية نحو إعادة بناء الذات والتمرد على القيود الاجتماعية والقدرية، مستبدلًا الألم بالعمل والنهضة.

ولا أكاد أشك أن هذا الهروب هو استمرار لآلام قيس العربي؛ مجنون ليلى.. الذي كثيراً ما نجده في شعر غالب رمزاً لهذه المعاناة ومحاولاته الدائمة للهروب إلى عوالم الحب الخيالية، حيث يتحول الحبيب إلى رمز للخلاص من واقع قاسٍ ومؤلم. يقول غالب[23]:

ذرہ ذرہ ساغر ہے خانہ نیرنگ ہے
گردش مجنوں بہ چشمکہاے لیلی اشنا

ويعني أن كل ذرة في الكون كأس خمر، مليء بالعجائب. ذرات مترابطة ارتباط المجنون بليلى، إذ يكفي أن تبقيه يطوف حولها بنظرة من طرفها الكحيل. ويقول غالب أيضاً :

قیامت ہے کہ سن لیلیٰ کا دشتِ قیس میں آنا
تعجّب سے وہ بولا 'یوں بھی ہوتا ہے زمانے میں ؟'
دلِ نازک پہ اس کے رحم آتا ہے مجھے غالب
نہ کر سرگرم اس کافر کو اُلفت آزمانے میں

يتساءل غالب: ما هذا الخاتمة العظيمة؟ أيعقل أن تأتي ليلى إلى صحراء قيس ليقول متعجباً "أيمكن أن يحدث هذا أيضًا في هذا الزمان؟! أشفق على قلبه الرقيق يا غالب، لا تختبر هذا المتنكّر في زمان الحب!

إن مقارنتنا لغالب بغيره من الشعراء تكشف عن سمة مشتركة تتمثل في شعور الإنسان بالضعف أمام الوجدان، إلا أن الطريقة في مواجهة هذا الضعف تختلف؛ فبينما يهرب غالب إلى عزلته الفكرية وأقداحه في محاولة للغيبوبة عن الواقع، اختار غيره من الشعراء الهروب إلى الحب والطواف حول كبرياء الحبيب، أو الاتحاد المطلق معه، وتكشف هذه المسارات المختلفة عن تنوع ردود الفعل للتجربة الإنسانية الواحدة تجاه الألم النفسي والمعاناة الوجودية. وربما يلجأ غالب لهذا الحل في الهروب لأنه يرى نفسه أقل من أن ينتظره أحد، لذا يقول غالب[24]:

یہ نہ تھی ہماری قسمت کہ وصالِ یار ہوتا
اگر اور جیتے رہتے، یہی انتظار ہوتا

أي لم يكن نصيبنا وصال الحبيب، ولو قُدّر لنا أن نعيش أكثر لربما بقينا على قيد هذا الانتظار، وفي نفس المعنى يقول[25]:

آہ کو چاہیے اک عمر اثر ہونے تک

کون جیتا ہے تری زلف کے سر ہونے تک؟

أي أن الآهة تحتاج عمراً حتى تصبح مؤثرة، فمن ذا الذي يعيش حتى تنتظم خصل شعرك؟ ويقول في نفس المعنى عن نكران الحبيب[26]:

رہتے تھے کبھی جن کے دل میں ہم جان سے بھی پیارے
ہم بھی وہیں موجود، وہ بھی وہیں موجود، وقت کا کھیل تھا

في هذه الأبيات يشتكي غالب تنكر المحبوب وتحول القلوب حيث يقول "كنا نسكن في قلب من كان أحبّ إلينا من أرواحنا، نحن لا نزال هناك وهو لا يزال هناك لكنها لعبة الزمان !!"، وتتجدد لعبة الهروب في شعر غالب بصور مختلفة، فتارة يعيش في قلب الحبيب وتارة يريد أن يفر بالحبيب إلى جزيرة معزولة مما يشي بعمق المأزق النفسي الذي يستولي عليه من حياة البشر. يقول غالب[27]:

رہئے اب ایسی جگہ چل کر جہاں کوئی نہ ہو
ہم سخن کوئی نہ ہو اور ہم زباں کوئی نہ ہو

أي لنذهب الآن إلى مكان لا يوجد فيه أحد، لا أحد يمكن أن يخاطبنا أو يتحدث بلغتنا! وهكذا تتداخل في قصائد غالب الرموز والاستعارات بذكاء لتحول الأفكار المجردة إلى مشاهد بصرية وحسية تجعل من شعره تجربة فنية وجمالية فريدة من نوعها.

5. بين الذاتية والإنسانية

ما يميز شعر غالب عن غيره هو وضوح الجانب الذاتي فيه لأنه يستلهم تجاربه الشخصية، مثل معاناته من الفقر وفقدان الأحبة وشعوره بالعزلة. فقد أصبح يتيماً في سن صغيرة، وعانى في طفولته كثيراً، ثم تزوج لكن رحل سبعة من أبنائه صغاراً. لقد ساعدت بساطته وبصيرته في إقبال العامّة على شعره، بل جعل العامة أشعاره جزءا من مفرداتهم اليومية، يحبه الناس ويتذكرونه لأنه يمثل جزءاً من مشاعرهم، ويشكل وجدانهم، حتى الطفل قادر على فهم أبياته، ويمكن للمرء العثور في الأزقة الضيقة بدلهي القديمة على مصلحي أحذية، وسائقي عربات ريكشا، يرددون أشعارا لغالب بحماس في تعاملهم مع الشوارع الغادرة، وأزمة الوجود الأفعوانية المتشابكة، لا عجب إذن من أن تمر القرون ولا يأتي أحد يستطيع أن يصل إلى مكانته، وأن تظل أشعاره تتردد كأقوال صادقة مثلما كانت منذ زمن مضى[28].

فقد غالب زوجته وأطفاله وأحباءه، وكان هذا الألم الشخصي موضوعاً متكرراً في شعره. لكنه عبّر عنه بطريقة تتجاوز الفردية، ليصبح مرآة للألم الذي يشعر به كل من فقد عزيزاً.يقول غالب[29]:

کیونکر اس بت سے رکھوں جان عزیز
کیا نہیں ہے مجھے ایمان عزیز
دل سے نکلا پہ نہ نکلا دل سے
ہے ترے تیر کا پیکان عزیز
تاب لائے ہی بنے گی غالب
واقعہ سخت ہے اور جان عزیز

يتساءل غالب هنا "لِمَ أفضل الحياة على ذلك الصنم، أليس إيماني عزيزًا عليّ؟!" ثم يقول في البيت الثاني "خرجت من قلبي لكنك لم تغادر قلبي، بل حتى نصل سهمك الذي غرزته بقلبي عزيز علي" ويتوجه غالب في البيت الثالث بالخطاب إلى نفسه على عادة شعراء الهند بقوله "ليس لك إلا الصبر يا غالب، الخطب جلل والحياة عزيزة". هذه الأبيات تعكس فكرة الحب والفراق، وأثر الأحبة في قلوب المحبين بعد الفراق، متجاوزة الحوادث الفردية لفقد ابن أو أم أو زوجة.

عانى غالب من ضائقة مالية طوال حياته، وانعكس ذلك في شعره الذي يعبر عن ألم العجز والحاجة، لكنه يصوغ هذه المعاناة بطريقة تجعلها تمثل الإحساس الإنساني العام بالحرمان، في ضوء أسلوبه المتصوف العابث فيقول[30]:

قرض کی پیتے تھے مے، لیکن سمجھتے تھے کہ ہاں
رنگ لائے گی ہماری فاقہ مستی ایک دن

يقول غالب: كنا نقترض ثمن الخمر لنشربها، لكن كنا نؤمن أن فقرنا هذا سيثمر يوماً.. في هذا البيت، يعبر غالب عن معاناته المالية بعبارات تبدو شخصية، لكنها تعكس الأمل الإنساني العام بأن الشدائد قد تحمل في طياتها أفقاً للتغيير إلا أن هذه الذاتية تتحول في شعره إلى تجربة إنسانية. كانت حياته المليئة بالمعاناة، من الفقر وفقدان الأحبة إلى شعوره بالعزلة والاغتراب، مصدراً لإلهامه الشعري؛ فنجده يعبر عن الآلام التي يعانيها الفقير بصورة بديعة تشي بأنه يموت في اليوم أكثر من مرة إذ يقول[31]:

کہوں کس سے میں کہ کیا ہے، شب غم بری بلا ہے

مجھے کیا برا تھا مرنا، اگر ایک بار ہوتا

يتساءل غالب "من أخبر عن فظاعة ليلة الحزن؟" ويتابع قائلاً "لم أكن لأعترض على الموت لو أنه كان يحدث مرة واحدة فقط". هذا البيت يمثل جماليات غالب العاطفية والرمزية، حيث يجسد مفهومًا فلسفيًا حول الآلام الإنسانية ومعاناتها..تشبيهات غالب تُظهر قدرته على الجمع بين الغرابة والوضوح، مما يجعل صوره الشعرية تترك أثراً عميقاً في ذهن القارئ كما يقول في هجر الحبيب مثلاً[32]:

ہم نے مانا کہ تغافل نہ کروگے، لیکن
خاک ہو جائیں گے ہم، تم کو خبر ہونے تک

في هذا البيت نبرة ساخرة متذمرة، تشتكي التجاهل والصدود إذ يقول لمخاطبه "عرفنا بأنك لن تتجاهلنا، ولكننا سنصبح تراباً قبل أن تلاحظ وجودنا". لم يتوقف غالب عند حدود تجربته الخاصة؛ بل صاغها بأسلوب يجعلها تجربة إنسانية شاملة، حيث يجد القارئ صدى لمشاعره وأفكاره في كلمات غالب. يتعامل غالب مع الموت والفقد كحقائق شخصية، لكنه يربطها برؤية فلسفية تجعلها تمثل حقيقة إنسانية. إذ تُعد الذاتية في شعر غالب نافذة يطل منها القارئ على التجربة الإنسانية بأسرها. فهو لا يروي قصته الشخصية فحسب، بل يجعلها أداة للتعبير عن المشاعر والأفكار التي يمكن أن يمر بها أي إنسان.

ميز ميرزا غالب شعره بأسلوب لغوي فريد يجمع بين العامية والفصيحة في أشعاره الأردية، وبين البساطة والتعقيد في أشعاره الفارسية. استطاع أن يمزج بينهما بطريقة تخلق إيقاعاً شعرياً متناغماً، يعبر عن أعمق مشاعره وأفكاره بصدق وجمال. يُظهر شعره قدرة غير عادية على التلاعب بالألفاظ والجمل لتوليد صور شعرية تأسر القارئ وتبقى عالقة في الذهن.

خاتمة

كان غالب مبدعاً في الجمع بين لغة الحياة اليومية والمفردات الفصيحة في قصيدة واحدة. هذا المزج جعل شعره قريباً من عامة الناس، وفي الوقت نفسه راقياً ومناسباً للنخبة المثقفة. فتح غالب الباب أمام الشعراء للتعبير عن مشاعرهم وأفكارهم بحرية وجرأة. تأثيره يظهر بوضوح في أعمال الشعراء الذين جاؤوا بعده، فتأثر إقبال بأسلوب غالب في المزج بين التأمل الروحي والفلسفي، مع التعبير عن القضايا الإنسانية الكبرى. الشعراء الأرديون المعاصرون استلهموا من غالب مرونته الأسلوبية وجرأته في الابتكار، مما ساعدهم على استكشاف مواضيع جديدة بلغات حديثة. كان غالب شاعراً متأملاً يبحث في أسئلة الوجود والمعنى. يتحول شعره إلى حوار بين الإنسان والكون، مما جعله رمزاً للتفكر الفلسفي في الشعر. لا يزال شعر غالب يُقرأ ويُدرّس على

نطاق واسع، ويُحتفى به كأيقونة عالمية. تُرجمت قصائده إلى لغات عديدة، وأصبحت مصدر إلهام للمثقفين والفنانين. وشكلت أعماله جزءاً من التراث الأدبي في شبه القارة الهندية، وأثرت على الفكر والشعر في العالم الإسلامي. لم يكن أسلوب غالب الشعري مجرد تجربة شخصية، بل كان مشروعاً فنياً وإنسانياً أحدث نقلة نوعية في تاريخ الشعر الأردي والفارسي.

المصادر والمراجع

(1) ميرزا غالب الشاعر الأسطوري، مقال محمد منصور الهدوي، مجلة الفلق، منشور بتاريخ 7 يونيو 2021.

(2) انظر: المدخل إلى الشعر الأردوي، محمد صادق الكرباسي، دائرة المعارف الحسينية، لندن (2009)، ص 155.

(3) انظر: ميرزا غالب : الشاعر الأسطوري.

(4) انظر: الأدب الأردي الإسلامي، سمير عبدالحميد إبراهيم، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض (1991) ص336.

(5) ديوان غالب، نسخة رضا، ص 334.

(6) ديوان غالب، ص23.

(7) ديوان غالب، ص 364.

(8) خاتم سليمان وكأس جمشيد وماء الحياة، رموز على أحلام الإنسان وأمانيه في هذه الحياة الدنيا، انظر: الهي نامه، لفريد الدين العطار، ترجمة ملكة علي التركي، آفاق للنشر والتوزيع، للقاهرة (2018) ص162.

(9) صفحة غالب في موقع ريخته، https://www.rekhta.org/ghazals/koii-ummiid-bar-nahiin-aatii-mirza-ghalib-ghazals?lang=ur

(10) ديوان غالب، ص119.

(11) سلطان العارفين، جلال الدين الرومي، تأليف يوسف أبو الحجاج، الدار الذهبية للنشر والتوزيع، الأقصر، مصر (2018) ص37.

(12) دانتي أليغييري (1265–1321) شاعر إيطالي من فلورنسا، أعظم أعماله: الكوميديا الإلهية المكونة من ثلاثة أقسام الجحيم، المطهر والفردوس، تعتبر للبيان الأدبي الأعظم للذي أنتجه أوربيا لأثناء العصور الوسطى.

(13) ديوان غالب، ص6.

(14) ديوان غالب، ص 80.

(15) ديوان غالب، ص 23.

(16) ديوان غالب، ص 33

(17) كليات غالب، ص 56.

(18) بردة البوصيري وأثرها في الأدب العربي القديم ، محمد فتح الله مصباح، دار الكتب العلمية، بيروت (2011) ص 378.

(19) ديوان غالب، ص119.

(20) ديوان غالب، ص33.

(21) ديوان غالب، ص37.

(22) اللزوميات، أبو العلاء المعري، دار الكتب العلمية، بيروت (2001) 1/ 393.

(23) ديوان غالب، ص43.

(24) ديوان غالب، ص 23.

(25) ديوان غالب، ص80

(27) يقول غالب، ص 132.

(28) انظر: ميرزا غالب، الشاعر الأسطوري.

(29) ديوان غالب، ص72.

(30) ديوان غالب، ص92.

(31) ديوان غالب، ص23.

(32) ديوان غالب، ص80.